حين تحولت بيوت الله إلى مؤسسات خدمية

في الحرب الأخيرة.. شيوخ ورهبان يؤدون أدواراً مركبة

كاظم حسوني

لعل أغلبنا على دراية بما انفردت به الجوامع والحسينيات والكنائس من دور مشرف سيظل ماثلاً في الأذهان، خلال أحداث الحرب الأخيرة وما رافقها من مشاهد انهيار هائلة شملت مجمل مناحي الحياة. أدت إلى الانفلات الأمني وتفشي أعمال السلب والنهب.

ففي تلك الأيام غدت بيوت الله محط أنظار الجميع وملاذهم الآمن. بما قامت به من مهمات نبيلة تمثلت:
باستنفار شيوخ وأئمة الجوامع ورهبان الكنائس برفع أصواتهم بحملات مكثفة متواصلة صبت في التذكير بقيم الدين والمواطنة وتحريم السرقة وعمليات التخريب/ استحداث عيادات طبية في الجوامع والكنائس/ استرداد الكثير من الممتلكات المسروقة/ إيواء المشردين/ تجهيز العوائل المحتاجة والفقيرة بالمؤن الغذائية والحبوب مما استرد من المسروقات/ إنقاذ المكتبات العامة من السرقة والحرق/ القيام بالحراسات وبث الدوريات الليلية/ حماية الدوائر المهامة من النهب والتخريب. ولإلقاء المزيد من الضوء على طبيعة وأهمية هذا الدور قمنا بجولة لزيارة عدد من المساجد والكنائس.

إيواء الأطفال المشردين

كان لقاؤنا الأول بالشيخ علاء أركان في (جامع وحسينية المصطفى) الكائن في حي أور سألناه أن يحدثنا عن عملهم في تلك الأيام، فأجابنا قائلاً: عند بدء الفوضى وعمليات السرقة والنهب دعونا أنا والأخ الشيخ صفاء عند إلقاء الكلمات والخطب إلى الكف عن ارتكاب هذه المحرمات، وعملنا على رفع اللافتات وفتاوى المراجع العليا (للحوزة العلمية) التي تنهى عن السرقة وتحض على الفضيلة والالتزام، وخلال ذلك تنادى الكثير من شباب المنطقة إلى مؤازرتنا مشمرين عن سواعدهم للعمل معنا. فاندفعوا خلال تصاعد وتيرة العمليات الحربية إلى عدة أماكن في مهمة انتشال وحمل الجرحى والمصابين من المواقع التي تعرضت لعمليات القصف، والإسراع بهم لتلقي العلاج الفوري في العيادة التي استحدثت لهذا الغرض، مثلما ساروا إلى تنظيم واجبات الحراسة الليلية والدوريات لحماية المنطقة، فضلاً عن مساهمتهم في أعمال البناء والتحوير التي أجريت لأجزاء عديدة من الجامع، كون البناية أصلاً إحدى المقرات الحزبية للنظام البائد، وتعدى نشاطهم إلى مهمات أخرى، كعثورهم على عدد من الأطفال المشردين في الشوارع دون مأوى بعد أن فقدوا ملاذهم في دار الأيتام. فتم إيواؤهم بتخصيص مكان لائق توفر فيه الطعام والكساء وكل ما يلزم لرعايتهم والحفاظ عليهم. وظلوا فيه لعدة أسابيع حتى قمنا بتسليمهم بعد ذلك إلى دار رعاية الأيتام. مضى الشيخ إلى القول: ومن فضل الله لقد كان لحملات التوعية أثرها اللافت إذ راحت ترد لنا الكثير من الممتلكات المنهوبة وبضمنها كميات كبيرة من المؤن والأغذية والحبوب وزعت دون تأخير على العوائل الفقيرة والمتعففة.

تطوعنا لحماية مدينة الطب

وفي (جامع الرحمة) الكائن في مدينة الشعب، التقينا الشيخ عبد الرحمن فاضل الشيخلي. فتحدث قائلاً: منذ بداية الحرب رفعنا أصواتنا إلى توحيد الكلمة والتكاتف لدرء الخطر والوقوف بوجه المتربصين بشق وحدة المسلمين، وبحمد الله تقاطر الكثير إلى مسجدنا على غير العادة من المصلين شيعة وسنة، وهذا بحد ذاته نصر من الله. ونظراً لحراجة الظرف الذي ألم بنا اندفعنا جميعاً للعمل على تلبية حاجات المواطنين. وهنا لا بد من الإشادة بهمة شباب المسجد، فقد كانت مواقفهم مشرفة وتشرح الصدر، فحين وردتنا أخبار عن قيام المخربين واللصوص من أعوان النظام بنهب وحرق المخازن الكبيرة للأدوية والمواد الطبية الخاصة بمستشفى (حماد شهاب) طلبوا منا بالإلحاح أن نأذن لهم بالذهاب لجلب ما أمكن من تلك المواد وانتشالها من الحرق والنهب. وبرغم تعرضهم لنيران المخربين تمكنوا من الحصول على كميات كبيرة منها، قمنا بعدئذ بتحويل قسم منها إلى مستشفى الكندي في الوقت نفسه سارع أغلبهم للتطوع لحماية مدينة الطب من عمليات التخريب والنهب مع إخوانهم من بقية المساجد، فضلاً عن الخفارات الليلية لحماية المنطقة.. دعني أقول لك بصراحة نحن في تلك الفترة دخلنا في حالة استنفارية قصوى نتخى لها أكثر المصلين بمن فيهم شباب المسجد والعديد من أبناء المنطقة، وبلطف من الله فالمحنة أمدتنا بالقوة وشحذت هممنا. فكنا نتسابق جميعاً لتقديم الخدمات للمواطنين حتى امتد نشاطنا خارج حدود المحلة، ففي أثناء الليل كانت دورياتنا المسلحة تنتشر لحماية المنطقة، ولم يتحدد واجبنا بهذا الجانب فحسب، بل كنا متأهبين لإسعاف الجرحى جراء عمليات القصف وحملهم إلى المسجد، وإلى تلبية أي طارئ، وفي النهار كانت بانتظارنا أعمال أخرى.

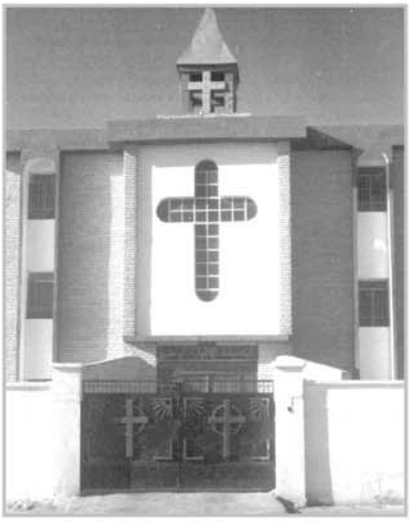

أطياف العراق في كنيسة أم الأحزان

في كنيسة (أم الأحزان) للكلدان التي لا يفصلها سوى شارع مزدحم عن السوق العربي. كنا في بناية ضخمة مستديرة بطابقين تحيط بفناء واسع، ولعلها تعد واحدة من أضخم المعالم الدينية في بغداد، يشي مظهرها بطابع القدم، إذ أنشئت عام 1846م، وتحدث لنا الخوري (يوسف قرياقوس) قائلاً: لعلك ستجد من يروي لك حكايتنا حيثما اتجهت في المحلة. إذ أن محلتنا كانت الأكثر تعرضاً لكثافة القصف في تلك الأيام، كونها تمثل مركز بغداد، أو ربما لقربها من مؤسسات النظام البائد المستهدفة. فالطائرات لم تفارق سماء هذه المنطقة. مما دفع بالعائلات إلى هروب جماعي في كل اتجاه وترك منازلهم مكرهين من جحيم القنابل، ولجوء بعضهم إلى هذا المكان للاحتماء داخل الكنيسة باعتبارها مكاناً آمناً، وبإزاء تدفق الكثير من العوائل اكتظ فناء الكنيسة وأروقتها بجموع الأطفال والنساء والشيوخ وهم يحملون الحقائب والأغطية والصرر والصناديق الصغيرة. حينها اتخذنا من جانبنا تدابير عاجلة بتهيأة (مدرسة التعليم المسيحي) الكبيرة التي تضم بطابقيها العديد من القاعات الواسعة والغرف. فاستطعنا بذلك من استيعاب أعدادهم الكبيرة، إذ تحولت إلى مجمع سكني، ومع مرور الأيام بات المكان كالفردوس بعد أن تحسسوا فيه الأمان، وأقام فيه أكبر عدد من العراقيين اجتمعوا بوئام في مكان واحد اكتظت به لهجات عرب وأكراد وتركمان، مسلمين ومسيحيين. وقد تفانى راعي الكنيسة الأب نظير دكو في رعايتهم وخدمتهم. أما آخر

فكانوا نزلاء مصحة الرشاد الذين خصص لهم مكان منفصل.

حماية مركز الدفاع المدني

كان لقاؤنا في (كنيسة مريم العذراء) للأقباط الأرثوذكس الكائنة في شارع الخلفاء بالشماس، مدحت فائز الذي أخبرنا بسفر الأب شنودة حكيم شنودة إلى الخارج. ولما علم بمهمتنا تحدث قائلاً: عند اندلاع الحرب هرع أبناء الطائفة والكثير من الخيرين لمساعدتنا، فبرغم أجواء الحرب، ظلت أبواب الكنيسة مشرعة لتأدية واجبها بتقديم خدماتها للجرحى والمصابين وإغاثة المحتاجين والمشردين.
وكنا نتحرك بهمة استجابة لأي طارئ. وفضلاً عن ذلك يمكن القول أن أبرز مهماتنا الأساسية كانت في التحرك خارج الكنيسة حين أعلنا تطوعنا لحماية (مركز الدفاع المدني) لإطفاء الشورجة المجاورة لنا، منذ بدء عمليات السلب والنهب، فقد اقتضى منا هذا الواجب القيام بحراسات ودوريات مشددة مع رجال الإطفاء، تواصلت الليل بالنهار لمنع تسلل عصابات اللصوص والمخربين، التي تكرر سطوها آنذاك على منطقة الشورجة والسوق العربي ومحلات شارع الرشيد، وبرغم تعرضنا لنيران المخربين أكثر من مرة وتحمل السهر وطول العناء، إلا أننا بحمد الله صمدنا إلى النهاية وأفلحنا في الحفاظ على ممتلكات مركز الإطفاء بما فيه من سيارات ومطافئ وأجهزة ومعدات، وحماية المحلات المجاورة من السرقة والنهب.
إلا أنه استدرك قائلاً: بأن هذا الواجب عرضه للاعتقال لعدة أيام من قبل

مصادرة أموال الكنيسة وما عثروا عليه من جوازات سفر. وقد حصل ذلك إثر إيداع رجال الإطفاء بعض معداتهم داخل الكنيسة.

حماة المكتبة الوطنية

في طريقي إلى جامع (الإمام علي بن أبي طالب ع) في مدينة الصدر. كانت يحاصرني الكثير من الأسئلة حيال قصة حماة المكتبة الوطنية فقصة النخبة الخيرة من شيوخ المسجد وشبابه اكتسبت بعدها الشعبي والإعلامي، وما زالت محط اهتمام وإعجاب كبير من قبل المواطنين والمثقفين والإعلاميين على حد سواء، وبمشهد يطول شرحه أفلح أولئك الشباب وسط دوي الحرب ودخانها في إنقاذ خزائن الكتب النفيسة للمكتبة الوطنية في باب المعظم من نيران حرائق المخربين، ولأجل التعرف على كل ذلك، التقينا الشيخ محمد جواد إمام الجامع وسألناه عن تفاصيل ما حدث فأجابنا:
نحن نعرف الحرب، ونعرف ما تعنيه من دمار لكثرة ما ذقنا من ويلات حروب صدام التي توالت علينا، لكن في حربه الأخيرة، أو خرابه الأخير كانت نيران الحرائق التي شبت أكثر كثافة وهي تلتهم وتستبيح بغداد من كل جانب، ومشعلوها هم أنفسهم أولئك الطغاة الذين لهم تاريخ حافل في حرق وتدمير العراق لعدة مرات طوال ثلاثة عقود ونصف العقد، تيمناً بأسلافهم المغول الذين أحرقوا بغداد ومكتباتها أو ألقوا بها إلى النهر.
ففي المسجد خططنا لذلك مع الشيخ محمد رضا والسيد منعم الجزائري وعدد من شبابنا المثقف، ولم ننشغل في المباحث طويلاً حين وردتنا أخبار حرقها. إذ كنا متحمسين جميعاً ومتعجلين للوصول إليها قبل أن تتحول إلى جثة هامدة، فحرقها لا يعني إلا شيئاً واحداً، هو مصادرة الإرث الحضاري تم تهيأة أكثر من شاحنة لهذا الغرض استقلها السيد منعم الجزائري بمعية فئة مخلصة من الأخوة: رافد عيدان/ أثير جهاد/ قيس عبيد/ علي صاحب/ أحمد خلف/ أحمد سادة/ أركان وفيق/ أمير علون/ حميد كاظم/ عباس طلال/ محمود جاسم.
أركان وفيق أحد المشاركين بحملة الإنقاذ قال: عند سماعنا من وكالات الأنباء أن المكتبة الوطنية تعرضت للحرق هرعت ثلتنا إلى مكان الحادث بصحبة السيد عبد المنعم الجزائري. وكان اقتحامنا للمكان على نحو منظم بفعل تعاوننا، إذ بقي عدد من الأخوة نواة رصد لمحاصرة اللصوص وحراستنا، وللتو فوجئنا بفرار المخربين وهم يركلون في طريقهم أعداداً من الكتب المحترقة حال رؤيتهم لنا. لإدراكهم أنهم سيقعون في الطوق الذي ضرب حولهم، الأمر الذي سهل من عملنا فاندفعنا مسرعين تجاه الأدخنة السوداء التي كانت متدفقة من قاعات الطابق الثاني، لنرى آلاف المخطوطات والكثير من المعدات وأجهزة المايكرو فيلم والمحتويات برمتها كانت ذائبة تماماً. مما جعلنا نشك بأن مادة حارقة قد سكبت عليها بفعل تخريبي متعمد، إلا إننا لم نلبث أن توجهنا على الفور إلى قاعات الكتب وعملنا على إنقاذها. فشرعنا بعملية نقلها إلى الشاحنة التي احتلت باحة المكتبة، واستمر عملنا بهمة طوال النهار حتى أنهكنا التعب واقتضى بقاؤنا حتى حلول الظلام.
إذ عمدنا قبل مغادرتنا إلى وضع اللحام لإحكام غلق أبواب القاعات بواسطة مولد ديزل أعددناه لهذا الغرض، كي لا تكون المكتبة عرضة للسطو من ورائنا. رغم ما نبذله من جهد كل صباح، إذ يلزمنا فتحها بالطريقة ذاتها.
وعلى هذا النحو تواصل عملنا المضني لمدة أسبوع بانتشال مئات الآلاف من الكتب ملأت عدة شاحنات وتم إيداعها في المسجد تحت دوي القصف والرصاص الطائش ومداهمات المخربين. ثم استدرك قائلاً: لا بد من الإشارة أن المكتبة أضرمت فيها النيران في يوم 4/10، ثم حصل فيها حريق آخر في 4/14 إذ رأينا عند قدومنا إلى المكتبة فريقاً إعلامياً لشبكة (نيويورك تايمس) يخرج أفراده من المكتبة حاملين معهم حقيبة كبيرة من الوثائق والمجلات القديمة، وبعد مغادرتهم بمدة قصيرة.
فوجئنا بألسنة النيران تنبعث من القبو. ولا نستطيع الجزم بشيء الآن المؤشرات تؤكد أنهم سرقوا، وربما أحرقوا.
لكن اتضح بعد ذلك إنهم فريق إعلامي نرويجي حين اعترضنا دخولهم في عودتهم مرة ثانية.

جغرافية القبور الجماعية.. تحفر قبراً للضمائر الميتة

علي المالكي

إذا كان لعقل المرء أن يتحرى ويتحقق من جرائم القبور الجماعية فله أن يدخل إلى قسم الضحايا من الشهداء والمفقودين، فيفتح بوابة القبور، وهذا القسم استحدثته مجموعة من الشباب من قرية الحصين في محافظة بابل دفعتهم ضمائرهم للكشف عن اركيولوجيا الجماجم والعظام، فقاموا بالحفريات اللازمة، وأزالوا طبقات التراب، فصدمتهم الجماجم في رحلتهم التي امتدت أربعين يوماً من الصباح حتى المساء، كشفوا خارطة المقابر الجماعية التي توزعت على أنحاء متفرقة في محافظة بابل. وفي القسم ستجد ما يوصلك إلى الخيوط التي تؤشر الجريمة، الناس الذين فتحوا القبور، صور ما تبقى من رفات الضحايا، أفلام، أعداد الضحايا، أعمارهم، جنسياتهم، ملفات وأضابير توثق عملياً جريمة القبور الجماعية التي وصفها إعلاميون بجريمة العصر التي لا نظير لها، وبعضهم بكى حين وجد نفسه محاصراً بأمئات الجماجم البشرية وهي تصرخ

سبعة قبور لـ6000 جثة

القبور الجماعية في محافظة بابل سبعة قبور ولكنها لا تضم رفات سبعة آدميين دفنوا على وفق التقليد البشري القاضي باحترام الموتى، وإنما فتحت فمها لتغلقه على ستة آلاف إنسان عراقي، قتلوا بطريقة يندى لها الجبين. يقول الأستاذ عامر محمود مال الله رئيس قسم الضحايا من الشهداء والمفقودين في بابل: "تم العثور على سبعة قبور جماعية، ضمن الحدود الجغرافية لمحافظة بابل، مع ثلاثة قبور لم تفتح حتى الآن. المقبرة الأولى فتحت في 30 نيسان عام 2003، وبلغ إجمالي الضحايا 6000 وأكبر القبور، مقبرة المحاويل، والمقابر السبعة هي:
أولاً: مقبرة تل أبو حجل وتدعى أم المقابر وتقع في مزرعة المجرم قيس العلواني.
ثانياً: مقبرة السيب في الضواحي.

ثالثاً: مقبرة جرف الصخر.
رابعاً: مقبرة معمل طابوق المحاويل.
خامساً: مقبرة الإسكندرية.
سادساً: مقبرة معسكر المحاويل.
سابعاً: مقبرة الإمام بكر.
وعملنا لمدة أربعين يوماً متواصلة من الساعة السادسة صباحاً حتى الثامنة مساءً للتعرف على الضحايا وعزل الرفات، وقمنا بتوثيق القبور، وسجلت فضائيات العالم فاجعة القبور الجماعية.

تصنيف الضحايا

لم يكن للقتلة ليهمهم أو يعنوا بالتحقق من الضحية، فالمجني عليه يجب أن يموت، ما كان يهمهم ويعنيهم سوى قتل من يلقونه في شعاب الغابة، وهكذا كان القتل جماعياً والمواراة جماعية، قتلوا الصغير وأمه، والطفل الذي كان يحمل في جيبه (الدعابل) وقتلوا قسماً من الضحايا حرقاً فيما قتلوا قسماً آخر رمياً بالرصاص، الشيخ المسن والعجوز الطاعنة والشاب،

فكيف جرى تصنيف الضحايا من الشهداء والمفقودين والتعرف على هوياتهم؟ أجابنا الأستاذ أمير علي العميدي الممثل القانوني للقسم قائلا: "بعد انهيار النظام وظهور المقابر الجماعية، وجدنا فيها أعماراً مختلفة من الطفل الرضيع حتى الشيخ المسن، وقام القسم بتنظيم عملية فرز الرفات وعزلها وقمنا بتصنيف الضحايا على أساس ما يحملون من دلالات فوجدنا أن عدداً منهم كان يحمل هويات تعرف أماكنهم، ونظمنا لهم شهادات وفاة أصولية، أما الأستاذ مال الله رئيس القسم فقد صنف الضحايا على نحو آخر، إذ ذكر لنا أن إجمالي ضحايا القبور الجماعية 6000 إنسان نسبة النساء 5%، وهناك أطفال وصلت نسبتهم إلى 1% كما عثرنا على رفات 30 مواطناً مصرياً وقمنا بتسليمهم للقائم بالأعمال المصري. ومن العسكريين بلغت النسبة 7-8% و 10% من الشباب وكبار السن فمثلاً المرحوم السيد ضايع كريم كان من مواليد 1907 أما الطفل "ناجي ماجد عبود" فعمره كان سنة واحدة وسلم إلى ذويه، وأضاف العميدي: أن القسم يخص شهداء 1991 وشهداء الأحزاب السياسية لا علاقة له بضحايا الحرب العراقية الإيرانية.

ضحايا ساحة العروسة

وتتحدث مدن بابل عن ضحاياها الذي اقتيدوا ظلماً لمقابر صدام الجماعية، فأهالي ناحية السدة لا ينسون اللحظة التي جمع فيها المجرم حسين كامل زهاء 2000 شاب من أحياء السدة ممن لا تقل أعمارهم عن الثامنة عشرة في ساحة العروسة، بعد أن قام بتصفية المقاومة الشعبية في الناحية، وخطب فيهم لاعناً أباهم وشاتماً لأن السدة انتفضت ضد الطاغية، ثم قام القتلة بوضع الشباب المحتشد بحافلات ذهبت بهم إلى حيث يقتلون ويدفنون في مقابر الإسكندرية والسيب، ويقول الأهالي أن الحافلات امتلأت بالشباب، وبقي عدد صغير همسوا له بالهتاف بحياة (القائد!) لكي ينقذوا حياتهم، وبالقطع فإن ضحايا ساحة العروس هم ممن دفنوا في القبور الجماعية في بابل إبان عهد الطاغية صدام.

مقبرة جديدة للأكراد

وآخر أخبار كارثة القبور الجماعية، مقبرة جديدة اكتشفت في مدينة النجف الأشرف الأسبوع الماضي، وتبين من الملابس الباقية أن رفات الضحايا تعود لمواطنين عراقيين من الأكراد. واتصل المسؤولون في النجف بممثل الاتحاد الوطني الكردستاني في محافظة بابل للتعرف على الضحايا بهدف دفنهم وتوثيق الجريمة.

كلمة أخيرة

إن القبور الجماعية التي حفرها النظام السابق للعراقيين كارثة بشرية من صنع الأشرار، وليست كارثة مسبباتها خارج الإرادة الإنسانية وحدود سيطرتها، ويقتضي الحال من العراقيين أن يتعلموا الدرس جيداً ويديروا حياتهم على النحو الذي يحول دون ظهور ديناصورات جديدة مثل صدام وأعوانه.
فللمؤسس علماً لإدارة الكوارث العراقية!